اللفظ القرآني

(الناحية العربية)

القرآن عربي مبين – كما قلنا سابقاً [1] – فألفاظه هي ألفاظ العرب التي كانوا يؤدون بها أغراضهم المختلفة وقد اتسعت هذه الألفاظ التي كانت تعبر عما يضطرب في الحياة الجاهلية في تلك البيئة التي لم تعرف علماً ولا حضارة ولافناً .. ، واتسعت هذه الألفاظ لأن تُؤَدَّي بها أغراض جديدة كثيرة . من هداية وتشريع وفلسفة وأخلاق وغيبيات ، وقصص ومواعظ وحكم جديدة ولم يظهر في أدائها لهذه الأغراض الكثيرة المتشعبة أي قصور أو كلف أو قسر للفظ على أداء معنى لاصلة له بمعناه الأول .

والناظر في ألفاظ القرآن ينظر إليها من جهات مختلفة ، ينظر إليها دارس اللغة ليتبين كيف أدى هذا اللفظ المعنى المقصود منه ، دون تعسف أو تكلف أو قصور وينظر إليها دارس النحو ليري كيف كان هذا اللفظ نموذجاً رفيعاً لصحة المفردات والتراكيب العربية وينظر إليها دارس البلاغة ليطلع على مظاهر الجمال البياني في أفخم صورها وينظر إليها صاحب علم النفس ليتعلم كيف ساست هذه الألفاظ بمعانيها وإيحاءاتها الفطرة الإنسانية ، وكيف عالجت الغرائز والطباع البشرية .

وسنقصر بحثنا هذا على الجانب اللغوي للفظ القرآني .

يستعمل القرآن الكريم الألفاظ المحددة المعاني الظاهرة الدلالة في الأمور التي لا تحتمل أكثر من معنى كالعقائد – مثلاً – فنجده حين يعرض لعقيدة من العقائد يختار لها الألفاظ التي من شأنها ألا تضطرب معها العقول ، ولا تتشعب فيها الآراء ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ . ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي

---

١ – انظر ص ٣١ .

لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن : ٧] . ــ إنما إلهكم إله واحد- ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة : ٧٦] ، ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة : ٢٧٥].

فكل الألفاظ التي استعملت في هذه الآيات وما أشبهها ظاهرة الدلالة على المراد منها . محددة المعاني .

فإذا كانت الأغراض التي يؤديها اللفظ القرآني يراد لها أن تكون موضع نظر واجتهاد واستنباط ، وتوسعة على الناس في عباداتهم أو في معاملاتهم جاء اللفظ مرناً ، يحتمل أكثر من معنى .

من أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ [البقرة : ٢٢٧] فالقرء - في لغة العرب - يطلق على الحيض . ويطلق على الطهر وقد جاء اللفظ محتملاً أو مشتركاً كما يقول علماء اللغة ليتمكن العلماء من النظر والاجتهاد والترجيح والتدليل .

ومثل ذلك في القرآن كثير . على أن إيراد اللفظ المشترك لا يكون فقط فيما يتصل بالعبادة أو المعاملة بل قد يورد للتوسعة في الصورة البيانية .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في قصة أصحاب الجنة الذين أرادوا أن يحرموا الفقراء منها فأحرقها الله تعالى : ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾ [القلم : ١٩ ، ٢٠] ولفظ الصريم له معنيان : النهار والليل ، أي فأصبحت كالنهار مبيضة لا شيء فيها أو كالليل مظلمة لا شيء فيها .

وقد يكون اللفظ محتملاً لمعنيين وهو في أحدهما أظهر ، فيسمى الراجح ظاهراً والمرجوح مؤولاً .

ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة : ١٧٣] فإن الباغي يطلق على الجاهل وعلى الظالم وهو فيه أظهر وأغلب .

وربما تعدد معني اللفظ بسبب اختلاف القراءات فيه وهذا من التوسعة في المعاني التي اختص بها القرآن الكريم فإن كل شاعر وكاتب يحاول أن يحدد معناه

ويبالغ في ذلك ما استطاع ، لكن القرآن الكريم – فيما عدا الأمور التي يطلب فيها الجزم والحسم – قد يجعل اللفظ محتملاً لأكثر من وجه ، إما باستعمال المشترك في سياق يناسب كلاً من معنييه أو من معانيه وإما بتنويع القراءات ، فيستفيد الناظر من القرآن معنيين للفظين يختلفان بحركة أو حرف .

من أمثلة ذلك ما في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران : ٧٩] قرئ تعلمون – بتشديد اللام – من التعليم وقرئ تعلمون – بتخفيف اللام – أي بقراءاتهم الكتب ، وعلمكم بها وتعلمون بالتشديد لأن العالم يقع عليه أن يعلم ويعلم .

ومعنى الآية : أنه لا ينبغي للأنبياء وهم صفوة الخلق وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة أن يدعوا الألوهية ، فلا يقول النبي للناس ، كونوا عباداً لي ، ولكن يقول لهم : كونوا ربانيين أي عالمين بالرب مواظبين على طاعته بسبب معرفتكم بالكتاب وتدريسكم له .

وفي الفخر الرازي أن من قرأ تعلمون بالتخفيف احتج بوجهين الأول أنه تعالى قال تدرسون ولم يقل تدرسون بالتشديد ، فناسب تعلمون الثاني : أن التشديد يقتضي مفعولين ، والمفعول هنا واحد .

وأما الذين قرأوا بالتشديد فزعموا أن المفعول الثاني محذوف تقديره : بما كنتم تعلمون الناس الكتاب وغيركم الكتاب ، وحذف لأن المفعول به قد يحذف من الكلام كثيراً ثم احتجوا على أن التشديد أولى بوجهين :

الأول : أن التعليم يشتمل على العالم فكان التعليم أولي .

الثاني : أن الربانيين لا يكتفون بالعلم حتى يضموا إليه التعليم لله تعالى ، ألا ترى أنه تعالى أمر محمداً ﷺ بذلك فقال : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل : ١٢٥] .

ويدل عليه قول مرة بن شراحيل : كان علقمة من الربانيين الذين يعلمون الناس القرآن [1] .

فنحن نرى كيف كان اختلاف القراءتين مؤدياً إلى معنيين - وكيف كان مجالاً للعلماء للتدليل والترجيح .

ومثال ما اختلفت فيه القراءتان بحرف قوله تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

قرئ (نُنشِرُهَا) من أنشر أي نحييها ومنه قوله تعالى ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس : ٢٢] .

وقرىء : ننشزها بالزاي وأنشزها نقلها إلى موضعها ، أو رفع بعضها إلى بعض ويقال لما ارتفع من الأرض نشز والمعنى على هذه القراءة كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها من الجسد ، ونركب بعضها على بعض وقد ركب الله العظام بعضها على بعض حتى اتصلت على نظام ثم بسط اللحم عليها ، ونشر العروق والأعصاب واللحوم والجلود فوقها .

والاختلاف في القراءة على نوعين - كما ذكر ابن قتيبة في تأويل مشكله ، القرآن اختلاف التضاد واختلاف التغاير . أما الأول فهو غير جائز قال : ولست واجده بحمد الله في شيء من القرآن إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ .

---

١ - تفسير الفخر ، جـ٨ ص ١١٨ .

وأما الثاني فهو جائز وقد ذكر منه أمثلة منها قوله تعالى في قصة سيدنا يوسف : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف : ٤٥].

قريء بالهاء أي بعد نسيان ، والمعنيان جميعاً وإن اختلفا – صحيحان لأن أحد الفتيين اللذين دخلا مع يوسف السجن وخرج منه وطلب إليه يوسف أن يذكره عند الملك هذا الفتي ذكر أمر يوسف بعد حين وبعد نسيان فأنزل الله على لسان نبيه ﷺ بالمعنيين جميعاً في غرضين .

وقد يكون للكلمة معان عدة ، ولكن يرى العلماء بالتفسير أن المراد معنى واحد لاغير ، ومن أمثلة ذلك كلمة ﴿ٱلْحُكْم﴾ في قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران : ٧٩]. فإن أهل التفسير اتفقوا على أن المراد بالحكم هنا هو العلم ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم : ١٣] يعني : العلم والفهم .

وإذا تكررت الكلمة الواحدة في القرآن فلا شأن أن يختلف معناها ، ولكن قد تجيء كلمة في مواضع كثيرة ، ويكون المراد منها واحداً في كل المواضع . قال الضحاك: كل كأس في القرآن فهي الخمر ، ولذلك أمثال :

أما اختلاف معاني الكلمة الواحدة ، فهو كثير كما قلت ، وقد ذكر المفسرون كلمات كثيرة من هذا النوع ، وذكر ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) عدداً كبيراً منها . من ذلك – مثلاً – كلمة (الدين) فالدين الجزاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] والدين الحساب ، ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور : ٢٥] أي حسابهم والدين الطاعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة : ٢٩] أي لا يطيعونه .

ومما ذكره ابن قتيبة – أيضاً – كلمة (الأمة) ، فهي – في الأصل – الصنف من الناس والجماعة كقوله عز وجل : ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي صنفاً واحداً في الضلال ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة : ٢١٣] . والأمة : الحين ، كقوله عز وجل : ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وكقوله : ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود : ٨]

أي سنين معدودة ، والأمة ، الإمام والرباني ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل : ١٢٠] أي إما ما يقتدى به الناس ، لأنه ومن اتبعه أمة ، فسمي أمة ، لأنه سبب الاجتماع ، وقد تكون الأمة جماعة العلماء ، كقوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] أيُ يعلِّمون .

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره لأول سورة البقرة أن (الكتاب) ورد في القرآن على وجوه :

أحدها : الفرض : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة : ١٧٨] . ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء : ١٠٣] أي فرضاً مؤكداً ثابتاً .

ثانيها : الحجة : ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات : ١٥٧] أي ببرهانكم وحجتكم .

ثالثها : الأجل : ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر : ٤] أي أجل معلوم .

رابعها : بمعنى مكاتبة السيد عبده ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور : ٣٣] .

هذا ما ذكره الفخر ، ويمكن أن يزاد عليها معنى خامس للكتاب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام : ٣٨] قال بعض المفسرين : المراد بالكتاب هنا العلم الإلهي المحيط بكل شيء .

وقد يحدد القرآن المعنى ، أو يردد بين معنيين بوساطة ذكر حرف الجر أو حذفه مثال الأول قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون : ٥] . فقد روى أنه سئل بعض العلماء عن معنى هذه الآية ، فقال : هو الذي ينصرف عن صلاته ، ولا يدري عن شفع أو وتر ، وخطيء بأنه ليس كذلك ، بل معناه الذين يسهون عن ميقات صلاتهم حتى تفوتهم واستدل المخطِّئون بحرف (عن) .

وإنما جاء الخطأ من أن العالم الأول لم يتنبه للفرق بين الحرفين (في) و (عن) ، وتنبه له الذين خطئوه ، إذ لو كان المراد ما فهمه الأول لجاء النظم الكريم (في صلاتهم) لكنه لما قال (عن صلاتهم) دل على أن المراد به السهو عن الوقت ، والغلط في العدد إنما يعرض في الصلاة بعد ملابستها ، وهذا ما يؤديه الحرف (في).

ومثال الثاني : وهو الذي حذف فيه حرف الجر ليدل التعبير على معنيين قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء : ١٢٧] . قيل : معناه . ترغبون في نكاحهن لمالهن ، وقيل : معناه : ترغبون عن نكاحهن لقلة مالهن . والكلام يحتمل الوجهين ، لأن العرب تقول : رغبت عن الشيء إذا زهدت فيه ، ورغبت في الشيء إذا حرصت عليه ، فلما ركب الكلام تركيباً حذف معه حرف الجر احتمل التأويلين جميعاً .

والآية نزلت في توفية النساء صداقهن ، وكانت اليتيمة تكون عند الرجل فإذا كانت جميلة ، ولها مال تزوج منها وأكل مالها ، وإذا كانت دميمة ، ولها مال منعها من الأزواج حتى تموت فيرثها . أو في إعطاء النساء ميراثهن ، وكانت العرب لا تورث النساء والصبيان شيئاً من الميراث ، وعلي ذلك فسر قوله تعالى : ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ . بما فرض لهن من الميراث ، أو بالصداق .

ومن الخطأ البين أن يقال : إن في بعض ألفاظ القرآن ما نشأ عن تحريف الناسخ ، وما أظن قال ذلك أو رواه إلا أصحاب القلوب المريضة الذين لا همَّ لهم إلا الطعن في الدين .

جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد : ٣١] من كلام الفخر الرازي : (في قوله : ﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ﴾ قولان :

القول الأول : أفلم يعلموا ، وعلي هذا التقدير ففيه وجهان : (الأول) : (ييأس) يعلم في لغة النخع ، وهذا قول أكثر المفسرين ، مثل مجاهد والحسن وقتادة واحتجوا بقول الشاعر :

ألم ييأس الأقدام أني أنا ابنه وإنْ كنت عن أرض العشيرة ثائياً

وأنشد أبو عبيدة :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أي : ألم تعلموا ؟

وقال الكسائي : ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت البتة .

والوجه الثاني : ما روى أن عليا وابن عباس كانا يقرآن : ﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فقيل لابن عباس : أفلم ييأس . فقال : أظن أن الكاتب كتبها ، وهو ناعس ، أنه كان في الخط (يأس) فزاد الكاتب سنة واحدة فصار ييأس ، فقرئ (ييأس) ، وهذا القول بعيد جداً ، لأنه يقتضي كون القرآن محلاً للتحريف والتصحيف ، وذلك يخرجه عن كونه حجة ، قال صاحب الكشاف : ما هذا القول إلا فرية بلا مرية .

والقول الثاني : قال الزجاج : أو يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء ، لأن الله لو شاء لهدى الناس جميعاً .

وتقريره أن العلم بأن الشيء لا يكون يوجب اليأس من كونه ، والملازمة توجب حسن المجاز ، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ اليأس لإرادة العلم .

قلت : وفي كلام الفخر شيء ، ذلك أن الواضح من كلام الزجاج أن اليأس هنا على معناه الحقيقي ، وهو ضد الأمل ، ولكن صنيع الفخر من بيان التلازم بين العلم واليأس يشعر بأن الفخر يفهم أن الزجاج يجعل اليأس هنا مجازاً عن العلم .

ولعل الذي أوقع الرازي في هذا الوهم أنه بعد أن نقل كلام الزجاج نقل كلام الزمخشري فخلط بين أمرين منفصلين كل الانفصال ، ولو أريد للكلام أن يستقيم لقيل إن ييأس هنا تحتمل ثلاثة وجوه :

الأول : أن يكون ييأس بمعنى يعلم في لغة النخع (الثاني) أن يكون اليأس على معناه الحقيقي ، وهو ما قاله الزجاج (الثالث) أن يكون ييأس مجازاً عن يعلم وهو ما حاول الفخر تقريره ، وما ورد صريحاً في كلام الزمخشري .

قال الزمخشري في هذا الموضع : ومعنى (أفلم ييأس) أفلم يعلم ، قيل : هي لغة قوم من النخع ، وقيل : إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه ، لأن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون ، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف ، والنسيان في معنى الترك لتضمنه ذلك قال سحيم بن وثيل الرباحي :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

ويدل عليه أن علياً وابن عباس ، وجماعة من الصحابة والتابعين قرأوا : أفلم يتبين وهو تفسير (أفلم ييئس) ، وقيل : إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السينات .

وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي (الإمام) ، وكان متقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله ، المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء ، وهذه – والله – فرية ما فيها مرية .

ويجوز أن يتعلق (أن لو يشاء) بآمنوا على : أولم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ، ولهداهم .

قلت : وههنا أمران : (الأول) أن ببيت سحيم بن وثيل جعله الرازي شاهداً على لغة النخع وجعله الزمخشري شاهداً على استعمال اليأس بمعني العلم .

الثاني : أن الرأي الأخير الذي ذكره الزمخشري ، من تفسير ييأس بيقنط ثم معنى كلام الزجاج ، فيبدو أن فيما في تفسير الفخر اعتراه سقط – والله أعلم .

لكل هذا كان الواجب الأول على من يتعاطى تفسير كتاب الله تعالى أن يكون على معرفة تامة بلغة العرب ، مع أن الذي نراه – والأسف يملأ قلوبنا – أن كثيراً من الذين يتصدون لتفسير كتاب الله الآن ، بل ومن زمن بعيد لا يعرفون من لغة العرب إلا القشور ، وما نملك إلا أن نردد ما كتبه الإمام عبد القاهر الجرجاني من نحو ما يقرب من ألف سنة ، حيث يقول : (ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير

بغير علم أن توهموا أبداً في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها ، فيفسدوا المعنى بذلك ، ويبطلوا الغرض ، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة ، وبمكان الشرف ، وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه ، وجعلوا يكثرون في غير طائل ! هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، وأنه ضلالة قد قدحوا به ، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق [1] .

ولذلك – أيضاً – كان يتحرز كثير من الصحابة ، ومن السلف الصالح عن تفسير القرآن الكريم ، خوفاً أن يكون للفظ معنى آخر هو المراد غير المعنى الذي يتبادر إلى الذهن ، قال صاحب البرهان : (واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله ، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها ، فقد يكون اللفظ مشتركاً ، وهو يعلم أحد المعنيين ، والمراد المعنى الآخر . وهذا أبو بكر وعمر – رضي الله عنهما – من أفصح قريش ، سئل أبو بكر عن (الأب) ، فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إذا قلت في كلام الله ما لا أعلم ! . وقرأ عمر سورة (عبس) فلما بلغ (الأب) في قوله تعالى : ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال : الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم قال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف ، وروى عنه أيضاً أنه قال : آمنا به كل من عند ربنا) [2] .

والمعروف عن الأصمعي – رحمه الله – وهو ما هو علماً باللغة أنه كان لا يفسر شيئاً من القرآن .

سئل عن قوله سبحانه : ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف : ٣٠] فسكت ، وقال : هذا في القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها ، وهي لكم شغاف ، ولم يزد على ذلك . والله أعلم .

****

---

١ – دلائل الإعجاز – للجرجاني – تحقيق الشيخ محمود شاكر .
٢ – البرهان في علوم القرآن للزركشي ، جـ١ ص ٢٩٥.